النحو نشأته وتطوره حتى عصر سيبويه

(دراسة منهجية وصفية تاريخية)

عامر عيادة أيوب الكبيسي: طالب مقيد بمرحلة الدكتوراه تحت إشراف الأستاذ الدكتور صلاح الدين محمد شمس الدين، الدراسات العليا، قسم اللغة العربية ولغات الشرق الأوسط، كلية اللغات واللسانيات، جامعة مالايا، كوالا لمبور، ماليزيا

ملخص البحث

مصطلح النحو كان شاملاً لكل علوم العربية ومتداخلاً مع اللغة والصرف، وبدأ منذ عهد مبكر من عصر الدولة الإسلامية، على اختلاف في الروايات التي تتحدَّث عن بدايتها، إلا أن كل الروايات – إن صحت – تدلُّ على أن عوامل عدة أدت ودعت إلى نشأة هذا العلم، وأنه أعلاماً في تاريخ علوم اللغة لعبوا دوراً بارزاً ومختلفاً في نشأته وتطوره.

واكتمل علم النحو أو كاد، بعصر الخليل بن أحمد وسيبويه، حيث اتضحت معالمه، وتنوعت مسائله، وتكاملت مصطلحاته أو كادت.

وتعتبر هذه المرحلة هي البداية الحقيقية لعلم النحو ، كعلم مستقل متكامل .

١. المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على خير من نطق بلسان عربي مبين ، وآله وصحبه أجمعين ، وبعد:

فاللُّغة وعاء الشعوب، ولا تقتصر وظيفتها على التفاهم بين أفراد الشعب الواحد، وإنما تعتبر أداة العلم والفكر، وبها يستدل على السلوك القويم مع الآخرين، كما أنها تحفظ التراث الثقافي للمجتمعات، وبالتالي فهي منظومة

اجتماعية متكاملة، وأداة حفظ كيان المجتمع ومن أهم مقومات حضارته الإنسانية.

واللُّغة العربية من اللغات السامية العريقة، والتي ترتبط ارتباطاً مباشراً بهوية الإمة الإسلامية وشخصيتها، وحملت تاريخها الديني والحضاري منذ أمد بعيد، جيلاً بعد جيل.

ورغم عمرها الطويل، إلا أنها حافظت على ملامحها الأصيلة، سواء في التراكيب أو القواعد الأساسية، واحتفظت بالكثير من مفرداتها؛ فلغة الكتابة وأسلوبها وقواعدها في العصر الحديث لا تختلف عنها قبل أكثر من أربعة عشر قرناً مضت.

وقد اختار الله تعالى اللُّغة العربية فأنزل بها كتابه الكريم، ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1] حيث نالت اللُّغة العربية هذا الشرف، فأصبح القرآن الكريم من أهم الدعائم التي أدَّت إلى تميزها بين سائر لُغات الأمم. فالقرآن الكريم الذي تولى الله تبارك وتعالى حفظه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2]. ومن هنا بقيت اللُّغة العربية وستبقى تنمو وتتطور إلى ما شاء الله.

قال ابن كثير (رحمه الله) في تفسيره[3]:" لغة العَرَب هي أفصح اللُّغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أُنْزِل أشرف الكُتُب بأشرف اللُّغات على أشرف الرسل ..." إلى آخر كلامه (رحمه الله تعالى).

ولأهمية اللُّغة العربية وارتباطها القوي بالدين الإسلامي، اهتم المسلمون بها، وبدراسة علومها، ووضع قواعدها: نحوها وصرفها، بل وبيانها ومعانيها، وامتد

(١) سورة يوسف، الآية ٢.

(٢) سورة الحجر، الآية ٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٦٧.

اهتمامهم بها إلى دراسة موازين الشعر ورسم الحرف والخط، وغيرها من العلوم المتعلّقة بها[١].

ويقول الإمام الشافعي: "ينبغي لكل أحد يقدر على تعلُّم العربية أن يتعلّمها؛ لأنها اللسان الأولى "[٢]. ويقول أيضاً: " على كل مسلم أن يتعلَّم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح والتشهّد وغير ذلك، ومهما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته وأنزل به آخر كتبه، كان خيراً له"[٣].

وفي هذا البحث سأتحدَّث عن النحو، ونشأته حتى بداية عصر سيبويه.

٢. تعريف النحو

أ. النحو لغةً: مادة (ن ح و) وهي تأتي في المعاجم بمعانٍ عديدة، ويختلف معناها حسب سياق الجملة، والمعاني التي وردت في المعاجم هي[٤]:

– القصد، يقال: نحوت نحوك، أي: قصدت قصدك. ونحوت الشيء، إذا أممته.

– المثل، تقول: مررت برجل نحوك، أي: مثلك.

– المقدار، تقول: له عندي نحو ألف، أي: مقدار ألف.

– الجهة أو الناحية، تقول: سرت نحو البيت، أي: جهته.

– النوع أو القسم، تقول: هذا على سبعة أنحاء؟ أي: أنواع.

---

(١) وقد أحاها الغلاييني في جامع الدروس العربية ٨/١ بعدما بين أنها هي التي يتوصل بها إلى عصمة اللسان والقلم عن الخطأ فقال : وهي ثلاثة عشر علما : الصرف ، والإعراب (ويجمعهما اسم النحو) ، والرسم ، والمعاني ، والبيان، والبديع ، والعروض ، والقوافي ، وقرض الشعر ، والإنشاء ، والخطابة ، وتاريخ الأدب ، ومتن اللغة .

(٢) الرسالة للشافعي ص ٤٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٤) انظر: ابن منظور، لسان العرب مادة (نحا).

– البعض، تقول: أكلت نحو السمكة، أي: بعضها.

– التحريف، يقال: نحا الشيء ينحاه وينحوه، إذا حرفه.

وقد جمعها الداودي نظماً بقوله[١]:

للنحو سبع معان قد أتت لغة جمعتها ضمن بيت مفرد كملا

قصد ومثل ومقدار وناحيــة نوع وبعض وحرف فاحفظ المثــلا

وجمع بعضها شعبان الآثاري في ألفيته (كفاية الغلام) بقوله[٢]:

والنحو في اللغة قصدٌ أصلُ وجهة قدر وقسم مِثْلُ

والمعنى الأوّل وهو (القصد) أكثر المعاني تداولاً، وأقربها من التعريف الاصطلاحي للنحو، وذلك في رأي بعض العلماء كابن دريد[٣].

ب. النحو اصطلاحاً

للنحو في الاصطلاح معانٍ عدة اختلفت باختلاف زمن التعريف، وليس هنا مجال الإحاطة بها جميعاً، ولكني أستقرئ بعض تلك التعريفات والتي تصب جميعها في التعريف بمصطلح علم النحو .

والمشهور في تعريفه الأساسي، أنه : علم بأصولٍ يُعرف بها أحوال أواخر الكلم العربيّة إعراباً وبناءً وما يتبع ذلك. وبصيغة أخرى: "العلم بالقواعد التي يُعْرَف بها أحكامُ أوَاخِرِ الكلمات العربية في حال تركيبها: من الإعراب، والبناء وما يتبع ذلك"[٤].

---

(١) حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ١٠/١

(٢) زين الدين شعبان بن محمد القرشي الآثاري ألفية الآثاري :كفاية الغلام في إعراب الكلام ، تحقيق : زهير زاهد وهلال ناجي الطبعة الأولى – ١٩٨٧ .

(٣) انظر: حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ١٠/١.

(٤) محمد محي الدين عبد الحميد، التحفة السنية بشرح المقدمة الآجرومية. ص١. وانظر: خالد الأزهري، شرح التصريح على التوضيح ١٤/١. والفاكهي: الحدود النحوية، نقلاً عن حاشية الإيضاح في علل النحو، ص٨٩. وحاشية الصبان على الأشموني ١٥/١. والدكتور محمد سمير نجيب اللبدي: معجم المصطلحات النحوية والصرفية ص ٢١٧ . ٢١٨ .

وعلم النحو عند أبي حيان الأندلسي: "معرفة الأحكام التي للكلم العربية من جهة إفرادها ومن جهة تركيبها "[١].

وعرفه التهانوي بأنه: " علم يعرف به كيفية التركيب العربي صحة وسقاماً وكيفية ما يتعلق بالألفاظ من حيث وقوعها فيه "[٢]، وعرفه الأشموني بأنه: العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي ائتلف منها[٣].

قال ابن فضّال في "شرح عيون الإعراب"[٤]:

"فإنّ النّحو علم يُعرف به حقائق المعاني، و يوقف به على معرفة الأصول و المباني، ويحتاج إليه في معرفة الأحكام، ويستدلّ به على الفرق بين الحلال والحرام، و يُتوصّل بمعرفته إلى معاني الكتاب، وما فيه من الحكمة وفصل الخطاب".

ولعلَّ أقدم تعريف لهذا العلم ما ذكره ابن السراج (المتوفى سنة ٣١٦هـ) إذ قال: "النحو إنما أريد أن ينحو المتكلم إذا استعمله كلام العرب، وهو علم استخرجه المتقدمون من استقراء كلام العرب الأصول في النحو"[٥].

ثم تعريف ابن جني (المتوفى سنة ٣٩٢هـ): النحو "هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والتركيب والنسب وغير ذلك"[٦].

٣. موضوع النحو وغايته

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٦.٥/١

(٢) انظر: كشاف اصطلاحات الفنون، مؤلف ١١٥٨هـ، ٢٣/١.

(٣) الأشموني ١٥/١.

(٤) شرح عيون الإعراب، ص١٢٣.

(٥) الأصول في النحو ٣٧/١.

(٦) الخصائص ٣٤/١.

ذكر النحاة أن موضوع علم النحو الكلمات العربية من حيث عروض الأحول لها حال إفرادها وتركيبها. وغايته الاستعانة به على فهم كلام الله ورسوله، والاحتراز عن الخطأ في الكلام أو التمييز بين صواب الكلم وخطئه[١].

٤. مصطلح النحو

وعلم النحو لم يكن بهذا المصطلح، ولكنهم كانوا يعبرون عنه باصطلاحات أخرى، هي:

أ. الكلام: ودليل ذلك ما رُوي من قول أبي الأسود الدؤلي (المتوفى سنة ٦٩ هـ) وقد سمع اللحن في كلام الموالي: "هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام فدخلوا فيها، فصاروا لنا أخوة، فلو علمناهم الكلام"[٢].

ب. الإعراب: ودليل ذلك ما رُوي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ استعماله لكلمة الإعراب بمعنى النحو؛ إذ قال: وليعلّم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب[٣].

جـ. العربية: حيث رُوي عن عمرو بن دينار (المتوفى سنة ١٢٥هـ) قال: اجتمعت أنا والزهري (المتوفى سنة ١٢٤هـ) ونصر بن عاصم (المتوفى سنة ٨٩ هـ)، فتكلم نصر، فقال الزهري: إنه ليفلق بالعربية تفليقاً[٤].

وأمَّا كلمة (النحو) فإنها وردت في النصوص التي تتحدَّث عن بدايات هذا العلم، لا بوصفها عنواناً اصطلاحياً، بل مستعملة بمعناها اللُّغوي. ومن أمثلة هذه

(١) حاشية الصبان على الأشموني ١/١٦.

(٢) أخبار النحويين البصريين، السيرافي، ص١٣.

(٣) إنباء الرواة على أنباه النحاة للقفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١/١٥.

(٤) أخبار النحويين البصريين، السيرافي، ص٢١.

النصوص ما ذكره الزجاجي عن أبي الأسود من أنه "وضع كتاباً فيه جمل العربية، ثم قال لهم: انحوا هذا النحو. أي: اقصدوه. والنحو: القصد"(١).

وقد شاع مصطلح (النحو) بعد ذلك تدريجاً، لكنه لم يقض على استعمال مصطلح (العربية)، بل بقي هذا مستعملاً مدة طويلة في تعبيرات العلماء والنحاة وفي عناوين كتبهم. ومن شواهد استعماله في تعبيراتهم:

١- قول أبي عبيدة (المتوفى سنة ٢٠٨هـ): "أخذ أبو الأسود عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) العربية"(٢).

٢- قول ابن سلام: "أوَّل من أسَّس العربية ... أبو الأسود الدؤلي"(٣).

٣- قول المبرد (المتوفى سنة٢٨٠هـ): " أوَّل من وضع العربية ونقط المصحف أبو الأسود الدؤلي"(٤).

وقد أفاض الدكتور عوض حمد القوزي في تتبع ظهور مصطلح النحو في كتابه (المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري) استفاضة شاملة، وتفاصيلها ليست موضوعنا هنا(٥).

٥. أهمية علم النحو

لاَ شَكَّ أنَّ دِعامة العُلُوم العربيَّة وقانونها الأَعلى، الذي منه تستمد العون، وتستَلْهِم القصد، وترجع إليه في جميع مسائلها وفروعها، هو علم النَّحو.

وهذه العلوم النقلية – على عظيم شأنِها – لا سبيلَ إلى استخلاص حقائقها، والنفاذ إلى أسرارها بغير هذا العلم، فهل يُدركُ كلام الله تعالى، وتُفهم

(١) الإيضاح في علل النحو، الزجاجي، تحقيق مازن المبارك، ص٨٩.

(٢) أخبار النحويين البصريين، السيرافي، ص١٥.

(٣) طبقات الشعراء، ابن سلام، ص٥.

(٤) طبقات النحويين واللُّغويين، الزبيدي، ص٢١.

(٥) انظر: عوض حمد القوزي، المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، ص١٩، وما بعدها.

دقائق التفسير، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وأصول العقائد، وأدلة الحكام، وما يتبع ذلك من مسائل فقهيَّة، وبحوث شرعيَّة مختلفة، قد ترقى بصاحبها إلى مراتب الأئمَّة، وتسمو به إلى منازل المجتهدينَ . إلاَّ بإلهام النَّحو وإرشاده؟!

ولذلكَ أجمَع الأئمة منَ السلف والخلف قاطبة على أن النحو شرط في رتبة الاجتهاد، وأن المجتهد لو جمع كل العلوم لم يبلغ رتبة الاجتهاد حتى يعلم النحو، فيعرف به المعاني التي لا سبيل لمعرفتها بغيره، فرتبة الاجتهاد متوَقفة عليه، لا تتم إلا به(١).

وقد ورد عن سلفنا الصالح (رحمهم الله تعالى) آثار كثيرة تحث على تعلم علم النحو، أورد منها الخطيب البغدادي (رحمه الله) طرفا في كتابه: (الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السامع)، وبوب لها (رحمَه الله) بقوله: الترغيب في تعلم النحو والعربية لأداء الحديث بالعبارة السَّويَّة.

ومنَ الآثار التي أوردها الخطيب (رحمه الله):

١- "قال الرَّحبي: سمعتُ بعض أصحابنا يقول: إذا كَتَبَ لحَّان، فكتب عنِ اللَّحَّان لحَّانٌ آخر، فكَتَب عنِ اللَّحَّان لحانٌ آخر، صارَ الحديث بالفارسيَّة".

قال الخطيب البغدادي (رحمه الله): فينبغي للمُحَدِّث أن يَتَّقيَ اللَّحن في روايته؛ لِلعلَّة التي ذكرناها، ولن يقدرَ على ذلكَ إلا بعد درسه النَّحو، ومطالعته علم العربيَّة"(٢). ا.هـ

(١) انظر: أبو البركات كمال الدين بن محمد الأنباري (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ)، كتاب لمع الأدلة في أصول النحو، الفصل الحادي عشر - باختصار -.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/٢٤ .

٢- "قال المغيرة بن عبد الرحمن: جاء الدَّرَاوَرْدِي - يعني: عبد العزيز بن محمد - إلى أبي يعرض عليه الحديث، فجعل يقرأ ويلحن لحناً بَيِّناً، فقال له أَبِي: وَيحكَ يا دَرَاوَرْدِيّ، أنتَ كنتَ بإقامة لسانكَ قبل هذا الشأن أحرى"(١).

٣- "قال حاجب بن سليمان: سمعتُ وكيعاً يقول: أتيتُ الأعمش أسمع منه الحديثَ، وكنتُ ربَّما لحنتُ، فقال لي: يا أبا سفيان، تركتَ ما هو أَوْلَى بكَ منَ الحديث. فقلتُ يا أبا محمد، وأي شيء أَوْلَى منَ الحديث؟ قال: النَّحو. فأَمْلَى عليَّ الأعمش النَّحو، ثُمَّ أملى عليَّ الحديثَ"(٢).

ولأهمية النحو حرص وحث كثير من السلف على تعلمه:

* وقال الشعبي (رحمه الله) (المتوفى سنة ١٠٣ هـ): "النحو في العلم كالملح في الطعام، لا يستغني عنه"(٣).

* قال أيوب السختياني (المتوفى سنة ١٣١ هـ): "تعلموا النحو فإنه جمال للوضيع، وتركه هجنة للشريف"(٤).

* وقال شعبة بن الحجاج (رحمه الله) (المتوفى سنة ١٦٠ هـ) : "من طلب الحديث فلم يبصر العربية، فمثله مثل رجل عليه برنس وليس له رأس"(٥).

* وقال أبو إسحاق الشيرازي (المتوفى سنة ٤٧٦ هـ) في صفة المفتي "... ويعرف من اللُّغة والنحو ما يعرف به مراد الله تعالى ومراد رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم ..." (٦).

---

(١) المرجع السابق ٢/ ٢٦ .

(٢) المرجع السابق.

(٣) الجامع للخطيب، ٢٨/٢.

(٤) نقلا عن البيان والتبيين للجاحظ ص ٢١٩.

(٥) أخرجه الخطيب في الجامع، ٢٦/٢.

(٦) اللمع في أصول الفقه ١٢٧/١ .

* قال أبو البركات الأنباري (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) في لمع الأدلة في أصول النحو : " إن الأئمة من السلف والخلف اجتمعوا قاطبة على أنه شرط في رتبة الاجتهاد وأن المجتهد لو جمع كل العلوم لم يبلغ رتبة الاجتهاد حتى يعلم النحو"(١).

* وقال الإمام النواوي (المتوفى سنة ٦٧٦ هـ) : "وعلى طالب الحديث أن يتعلَّم من النحو واللُّغة ما يسلم به من اللحن والتصحيف"(٢).

* وقال إسحاق بن خلف البهراني:

النحو يبسط من لسان الألكن والمرء تكرمه إذا لم يلحن

فإذا طلبت من العلوم أجلها فأجلها منها مقيم الألسن

٦. نشأة النحو

كان المجتمع العربي في الجاهلية وصدر الإسلام عربياً خالصاً، وذلك لأن اللغة العربية هي لغتهم التي يتحدثونها سليقة طبعوا عليها، ولأن اختلاط العرب بغيرهم كان محدوداً في الجاهلية وصدر الإسلام، لا يكاد يزيد على تعاملهم التجاري في اليمن أو الشام، ومجاورتهم للفرس والروم ، وكان غير العرب ممَّن يعيشون داخل المجتمع العربي أفراداً معدودين، وما يظهر منهم أحياناً من لكنة أو لحن، لا يؤثر تأثيراً كبيراً في اللُّغة العربية التي تجري على ألسنتهم بطلاقة مجرى الدم في العروق. فلم تتأثر اللُّغة العربية بما ظهر من لحن نادر خلال تلك الفترة، ولم يكن هذا اللَّحن يدعو للقلق على لغة القرآن الكريم.

حيث وردت أحاديث وروايات تشير إلى وقوع اللحن في صدر الإسلام.

(١) النحو الوافي ١/١ نقلا عن لمع الأدلة في أصول النحو .

(٢) تقريب النواوي مع تدريب الراوي، ١٠٦/٢.

يقول أبو الطيب الحلبي (ت٣٥١هـ): "واعلم أن أوّل ما اختل من كلام العرب فأحوج إلى التعلم : الإعرابُ؛ لأن اللَّحن ظهر في كلام الموالي والمتعربين من عهد النبي صلَّى الله عليه وسلَّم"(١).

ولما انتشر الإسلام خارج الجزيرة العربية، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، واختلط العرب بغيرهم من أصحاب اللغات المختلفة، وحدث الاحتكاك اللُّغوي سمعاً ونطقاً وكتابةً، حدث اللَّحن وانتشر، حتى كاد أن يكون ظاهرة لُغوية عند أعضاء المجتمع الإسلامي الجديد، حتى وصل إلى العرب الخلص أو أبنائهم.

وعبَّر أبو بكر الزبيدي (ت٣٧٩هـ) عن هذه الحقيقة على نحو أكثر تفصيلاً حيث قال: "ولم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر إسلامها وماضي جاهليتها حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان، فدخل الناس فيه أفواجاً، وأقبلوا إليه أرسالاً، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة، واللُّغات المختلفة، ففشا الفساد في اللُّغة العربية، واستبان منه في الإعراب الذي هو حَلْيُها، والموضح لمعانيها، فتفطن لذلك من نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب، فعظم الإشفاق من فُشُوِّ ذلك وغلبته، حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم إلى أن سببوا الأسباب في تقييدها لمن ضاعت عليه، وتثقفيها لمن زاغت عنه"(٢).

والمتتبع لروايات بداية ظهور النحو في المراجع يجد فيها اختلافاً وروايات عديدة، وإن كان يكاد يجمع أغلبها على أن أبا الأسود الدؤلي هو واضع هذا العلم لأسباب وبروايات مختلفة.

(١) مراتب النحويين، ص٢٣.

(٢) طبقات النحويين واللُّغويين، ص١١.

ورغم إجماع المراجع التاريخية القديمة على دور أبي الأسود في وضع النحو، إلا أن بعض الباحثين المعاصرين يشكك في هذا الدور ويستقله. ويشيرون إلى أن أبا الأسود ما هو إلا حلقة من حلقات تطور النحو، وسنأتي إلى تفصيل هذه المسألة.

إن الحديث بدقة عن نشأة النحو يتطلب الحديث عن ثلاثة مراحل من المراحل التي مرَّ بها علم النحو:

المرحلة الأولى: النحو قبل أبي الأسود الدؤلي.

المرحلة الثانية: مرحلة أبي الأسود الدؤلي وتلاميذه.

المرحلة الثالثة: مرحلة الأخفش والخليل وسيبويه.

وفيما يلي تفصيل هذه المراحل:

٧. النحو قبل أبي الأسود الدؤلي

المتتبع للمصادر التاريخية يجد نشاطاً لُغويا في الفترة التي سبقت أبا الأسود الدؤلي، وهذا النشاط اللُّغوي المتنوع كان يستجيب لحاجات تلك المرحلة، ويتمثل بتعليم قراءة القرآن وروايته وكتابة المصحف والكتابة عموماً، وتعليم اللُّغة العربية، وكان هذا النشاط مؤثراً وممهداً لما قام به أبو الأسود الدؤلي من تنقيط المصحف ووضع بعض أبواب النحو.

وكان هذا النشاط في غالبه شفهياً، وغير منظم.

ويتمثل هذا النشاط في تعليم قراءة القرآن الكريم والكتابة ومكافحة اللحن وتعليم العربية. وقد فصّل الدكتور غانم قدوري الحمد في بحثه (النحو العربي قبل أبي الأسود الدؤلي) الحديث عن النشاط اللُّغوي في عصر صدر الإسلام، وذكر رواية مهمة تدل على أهمية النشاط اللُّغوي في ذلك العصر، وأنه يجب أن يؤخذ

في الاعتبار عند الحديث عن بداية اهتمام العرب بالنحو بمفهومه في ذلك الوقت، فعن عبيد الله بن بريدة، عن أبيه قال:

"كانوا يؤمرون، أو كنا نؤمر، أن نتعلم القرآن، ثم السنة، ثم الفرائض، ثم العربية: الحروفَ الثلاثة. قال: قلنا وما الحروف الثلاثة؟ قال الجر والرفع والنصب"(١).

٨. دور أبي الأسود الدؤلي في نشأة النحو

المراجع اللُّغوية القديمة تشير أغلبها إلى دور بارز لأبي الأسود الدؤلي في وضع النحو، سواء بنفسه أو بأمر من علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، أو بأمر من زياد بن أبيه.

يقول السيرافي: اختلف الناس في أوّل من رسم النحو، فقال قائلون: أبو الأسود الدؤلي، وقال آخرون: نصر بن عاصم الليثي، وقال آخرون: عبد الرحمن بن هرمز، وأكثر الناس على أبي الأسود الدؤلي(٢).

وفي الكثير من المراجع إشارة إلى دور مهم لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في نشأة النحو، حيث تنقل بعض تلك المراجع عن أبي الأسود قوله:

دخلت على عليّ، فرأيته مطرقاً، فقلت: فيم تتفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: سمعت ببلدكم لحنا فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية. فقلت: إن فعلت هذا، أحييتنا. فأتيته بعد أيام، فألقى إليَّ صحيفة فيها:

الكلام كله اسم، وفعل، وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمّى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمّى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل، ثم قال لي: زده وتتبعه، فجمعت أشياء ثم عرضتها عليه.

---

(١) انظر: غانم قدوري الحمد، النحو العربي قبل أبي الأسود الدؤلي، ص١٣. نقلاً عن الجامع لأخلاق الراوي ٨٢/٢. وانظر: النحو العربي نشأته وتطوره، ص٢٧.

(٢) أخبار النحويين البصريين، ص٣٣.

بل إن رواية أخرى تزيد من دور علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وتذكر أنه دون تفاصيل نحوية أخرى، وطلب من أبي الأسود الدؤلي تتبعها.

حيث تنص الزيادة على الرواية السابقة ما يلي:" .. تتبعه وزد فيه ما وقع لك، واعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر فجمعته ضمن أشياء وعرضتها عليه، وكان من ذلك حروف النصب، فكان منها: إن، وأن، وليت، ولعل، ولم أذكر لكن، فقال لي: لم تركتها، فقلت لم أحسبها منها، قال: فزدها فيها. وكلما وضعت من أبواب النحو عرضته عليه (رضي الله عنه)، إلى أن جعلت ما فيه الكفاية، فقال: ما أحسن هذا النحو الذي نحوته"(١).

ورغم ذلك نجد اضطراباً واختلافاً كبيراً في السبب الذي جعل علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، أو أبا الأسود الدؤلي يقدمان على وضع النحو، ولا شك أنه خشية انتشار اللحن كما تقر بذلك جميع المراجع، لكنها تذكر حوادث مختلفة، فمنها ما يشير إلى أنه بسبب لحن ابنة أبي الأسود، حيث يروي أبو الفرج الأصبهاني أن أبا الأسود الدؤلي دخل على ابنته بالبصرة، فقالت: ما أشد الحر. فقال لها: شهراً ناجر، فقالت: يا أبتي إنما أخبرتك ولم أسألك. فأتى أمير المؤمنين علياً بن أبي طالب (رضي الله عنه)، فقال يا أمير المؤمنين ذهبت لغة العرب لما خالطت العجم وأوشك إن تطاول عليه الزمان أن تضمحل، فقال وما ذلك؟ فأخبره بخبر ابنته، فأمره أن يشتري صحفاً بدرهم، وأملى عليه أن الكلام كله لا يخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى.

(١) القفطي: إنباء الرواة، ٣٩/١. وانظر: الزجاجي: الأمالي ٢٣٨-٢٣٩٩.

وحتى هذه الرواية عن لحن ابنة أبي الأسود دخلها الاختلاف، فتروي بعض المراجع اللحن السابق، وتروي أخرى غيرها(١).

كما تروي بعض المراجع التاريخية أن لزياد بن أبيه دور في ذلك، حيث تروي تلك المراجع أن أبا الأسود جاء إلى زياد فقال: أرى العرب قد خالطت العجم فتغيرت ألسنتهم، أفتأذن لي أن أضع للعرب كلاماً يقيمون به كلامهم؟ قال: لا، قال: فجاء رجل إلى زياد فقال: أصلح الله الأمير، توفي أبانا وترك بنون. فقال: ادع لي أبا الأسود. فدعي فقال: ضع للناس الذي نهيتك عنه.

هذا الاضطراب والاختلاف في الرواية التي تحدد بدقة بداية ظهور النحو، مما ذكرناه ومما هو مذكور بكثرة في المراجع التي تحدَّثت عن بداية النحو، جعلت عدداً من الباحثين المعاصرين يشكك في صحة هذه النسبة إلى ذلك العصر إجمالاً، وعلى رأسهم أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام، يقول بعد أن عرض الروايات المختلفة لبداية ظهور النحو: كل هذا حديث خرافة، فطبيعة زمن علي (رضي الله عنه) وأبي الأسود تأبى هذه التعاريف وهذه التقاسيم الفلسفية، والعلم الذي ورد إلينا من هذا العصر في كل فرع يتناسب مع الفطرة، وليس فيه تعريف ولا تقسيم، إنما هو تفسير آية أو جمع لأحاديث ليس فيها ترتيب ولا تبويب، فأما تعريف وأما تقسيم منطقي فليس في شئ مما صح نقله إلينا عن عصر علي وأبي الأسود(٢).

ويقول الدجيلي: "وهذه الروايات التي تتنازع واضع النحو، والتي تتباين في سبب وضعه، تبدو للمتتبع الممحص مختلفة مضطربة لا يركن إليها، ولا يطمأن إلى ما تهدف إليه"(٣).

---

(١) أخبار النحويين البصريين، ١٢.

(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٢/٢٨٥.

(٣) مقدمة ديوان أبي الأسود، ص٦٧.

كما استدل الرافضون لنسبة النحو لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وأبي الأسود الدؤلي على كلامهم، بأنه لا توجد إشارة في كتب النحو إلى رأي نحوي لهما. يقول إبراهيم مصطفى: ويلاحظ أوّل ما يلاحظ أننا لم نجد في كتاب سيبويه، ولا فيما بعده رأياً نحوياً نسب إلى أبي الأسود، ولا إلى طبقتين بعده، فنحن أمام حقيقة واضحة أخذت من كتب النحو، وهي أن أقدم من نسب إليه رأي نحوي هو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي(١).

ويرى المعارضون أن أبا الأسود لم يضع النحو، بمعناه المصطلح الجديد، بل الذي وضعه هو تحريك المصحف الشريف بالنقط، كما أجمع على ذلك الباحثون من القدامى والمعاصرين، وهذا الذي فعله أبو الأسود قد ظنه القدماء نحواً، لذلك نسب إليه وضع النحو، ويكاد يجمع ويتفق على هذه النتيجة كل المعارضين، يقول أحمد أمين: "وعلى هذا فمن قال: إن أبا الأسود وضع النحو فقد كان يقصد شيئاً من هذا، وهو أنه وضع الأساس بضبط المصحف حتى لا يكون فتحة موضع كسرة، ولا ضمة موضع فتحة، فجاء بعده من أراد أن يفهم النحو على المعنى الدقيق، فاخترع تقسيم الكلمة"(٢).

ويقول الدجيلي: "فنحو أبي الأسود هو في الواقع تثبيت للنطق العربي حين قراءة القراءات وترتيل الآيات، فهو إذا قد وضع الجذر للنحو العربي فبهذا الرأي المنطقي نرفض الروايات"(٣).

ويرى الدكتور غانم قدوري الحمد أن أبا الأسود الدؤلي قام بتدوين الملاحظات التي استخلصها علماء الطبقة الأولى، وهم الصحابة (رضوان الله عليهم). وقول المؤرخين الأوائل: إن أبا الأسود هو أوّل من وضع العربية أو أوّل

(١) مدرسة البصرة النحوية، ٥٣.

(٢) ضحى الإسلام ٢/٢٨٥.

(٣) مقدمة ديوان أبي الأسود الدؤلي، ص٧٠.

من أسّس العربية، يعني في تقديري أنه أوّل من دوّن الملاحظات المتعلّقة بقواعد اللُّغة.

وأنه اخترع علامات الحركات، وهو المسمَّى نقْط أبي الأسود، الذي طبَّقه في المصاحف أولاً، فالكتابة العربية كانت تفتقر إلى علامات الحركات، وما قام به في هذا المجال يُعدُّ إنجازاً كبيراً استطاع الخليل بن أحمد الفراهيدي أن يتمّمه بتحويل النقاط إلى علامات الحركات المستعملة في الكتابة العربية إلى زماننا.

والخلاصة ممّا سبق، ومن مجموع الروايات التي ذكرت في المراجع اللُّغوية على اختلافها، نستخلص أن الاهتمام باللُّغة العربية كان مع نزول القرآن الكريم، وتعلُّمه وتعليمه، وأن هذا العلم كان يزداد الاهتمام به مع مرور الوقت. وأن الثَّابت ممّا قام به أبو الأسود الدؤلي يتركّز في نقطتين: الأولى تدوين الملاحظات اللُّغوية التي كان يتداولها المهتمون بأمر سلامة اللُّغة، ومن ثم قال المؤرخون أوّل من وضع العربية أبو الأسود، و(وضع) هنا بمعنى دوَّن. والنقطة الثانية هي نقْط المصحف الذي لم يختلف في نسبته إليه المتقدِّمون ولا المحدِّثون.

وعليه فما قام به أبو الأسود الدؤلي وتلامذته ما هو إلا حلقة وتطور مرحلي لما كان عليه الوضع. ولكنها تعد مرحلة مهمّة في تاريخ الدراسات العربية، حيث انتقلت من المرحلة التي رأيناها سابقاً إلى مرحلة التدوين.

ولتوضيح هذا الدور، ننقل هنا ما رواه محمد بن سلام الجمحي عن المقدار الذي أسهم به العلماء الأوائل الذي أسّسوا النحو العربي. قال: "سمعت أبي يسأل يونس عن ابن أبي إسحاق وعلمه، قال: هو والنحو سواء، وهو الغاية. قال: فأين علمه من علم الناس اليوم؟ قال: لو كان في الناس اليوم مَن لا يعلم إلا علمه لضُحك منه ..."(١).

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ص ٦.

وابن أبي إسحاق هذا هو تلميذ تلامذة أبي الأسود وكانت وفاته سنة (١١٧هـ). ويونس هو ابن حبيب أحد شيوخ سيبويه، وكانت وفاته سنة (١٨٢هـ). وما ورد في هذه القصة يدلُّ على نمو النحو العربي نمواً سريعاً في القرن الثاني، وأنّ بدايات هذا العلم كانت يسيرة، تناسب النشأة العربية الخالصة لهذا العلم التي بدأت من تعلُّم الكتابة وحروف الأبجدية العربية وقراءة القرآن الكريم وتلاوته في عصر النبوة وعصر الخلافة الراشدة، ثم تطوّرت لتركز على الإعراب وضبط حركاته، وانتهت ببيان كل ما يتعلّق بتركيب الكلام العربي.

وأن هذا التشكيك في نسبة وضع النحو إلى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وإلى أبي الأسود الدؤلي، لا يقلل من دور الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولا من دور أبي الأسود ومكانته، والذي وصفه ياقوت بأنه " أحد سادات التابعين، والمحدِّثين، والفقهاء، والشعراء، والفرسان، والأمراء، والأشراف، والدهاة، والحاضري الجواب ..."[١].

كما أن لأبي الأسود دورٌ آخر في إثراء الدراسات النحوية بما قدّمه من أبيات وشواهد نحوية منتشرة في أبواب النحو، كانت موضع مناقشة، ومجال حوار لتأييد فكرة، أو دعم رأي، أو بناء قواعد في حقل النحو العربي[٢].

٩. دور تلاميذ أبي الأسود الدؤلي

أشهر تلاميذ أبي الأسود الدؤلي هم:

١- عنبسة بن معدان المهري (المتوفي سنة ١٠٠هـ)، ويقال له: عنبسة الفيل. قال عنه الخليل: "أبرع أصحاب أبي الأسود"[٣].

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ٣٤/١٢.

(٢) انظر: الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، د. عبد العال مكرم، ص٤٥ وما قبلها.

(٣) مراتب النحويين ص ١١.

٢- ميمون الأقرن: وكان رأساً في اللّغة، حتّى إنّ أبا عبيدة لا يذكر غيره في هذه الطّبقة[١].

٣- يحيى بن يعمر (المتوفى سنة ١٢٩هـ)، فكان من أئمّة اللُّغة عالماً أميناً، وقد روى عن ابن عمر وابن عبّاس - رضي الله عنهما-[٢].

٤- نصر بن عاصم (المتوفى سنة ٨٩هـ)، وهو من القرّاء الفصحاء، وهو صاحب النّقط الثّاني الّذي يُعرف بالإعجام[٣].

٥- عبد الرحمن بن هرمز (المتوفى سنة ١١٧هـ): قال أبو النضر: "وكان . . . من أعلم الناس بالنحو وأنساب قريش"[٤].

٦- عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (المتوفى سنة ١١٧هـ) وهو: "أعلم أهل البصرة وأعقلهم، ففرع النحو وقاسه"[٥].

وقد كان لكل منهم دور مختلف في إثراء الدراسات النحوية واللُّغوية، بمجالاتها المختلفة، سواء في مجال القراءات القرآنية وإعرابها، أو في ظهور بعض المصطلحات النحوية التي لم تكن معروفة من قبل أو مع بداية التدوين إما عن طريقهم أو طريق عن تلاميذهم. وهذه الجهود مجتمعة أدَّت إلى تطوُّر علوم العربية على أيديهم، وازدادت مسائلها، وتنوعت قضاياها، وكثر طلابها ومتعلميها، فمهدوا لمرحلة مهمّة من مراحل تطوُّر النحو[٦].

ثم جاءت طبقة جديدة من هؤلاء العلماء، وعلى رأسهم:

---

(١) انظر : إنباه الرواة على أنباه النحاة ص ٣٣٧/٣ ، ومراتب النحويين ص ١١-١٢.

(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة ٢٤/٤ . ٢٧.

(٣) المرجع السابق ٣٤٣/٣.

(٤) طبقات النحويين واللُّغويين، الزبيدي، ص٢٦.

(٥) مراتب النحويين ص ١٢ . ١٤.

(٦) انظر: الدكتور عبد العال مكرم : الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، ص٥٢ . ١٠.

* عيسى بن عمر الثقفي (المتوفى سنة ١٤٩هـ): الذي صنَّف كتابين في النحو يُسمَّى أحدهما (الجامع)، والآخر (الإكمال)[١].

وهو الذي قال فيه وفيهما الخليل بن أحمد الفراهيدي[٢]:

ذهب النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر

ذاك إكمال وهذا جامعٌ وهمـــا للنـاس شمسٌ وقمر

وصفه ياقوت فقال: عالم بالنحو العربية، والقراءة مشهور بذلك[٣].

روى عنه سيبويه عِدَّة آراء نحوية[٤].

* أبو عمرو زبَّان بن العلاء (المتوفى سنة ١٥٤هـ): وهو العلم المشهور في القراءة واللغة، وأحد القراء السبعة[٥].

وله آراء في النحو أنارت الطريق لمن جاء بعده. يقول الدكتور عبد العال مكرم في كتابه (الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي): "إنّ النصوص العربية التي ضمتها كتب النحو شعراً ونثراً مدينة لأبي عمرو بن العلاء؛ لأنهم في ضوئها بنوا قواعدهم، وعلى أساسها شيَّدوا نحوهم، وفي إطارها تكوَّنت المدارس النحوية"[٦].

كما تعدد النقل عن أبي عمرو بن العلاء في كتاب سيبويه، ومعظم النصوص التي نقلها سيبويه في كتابه منسوبة إلى أبي عمرو أخذها من يونس بن حبيب[٧].

---

(١) نزهة الألباء، ص٢٢ . ٢٣.

(٢) نزهة الألباء، ص٢٢ . ٢٣.

(٣) معجم الأدباء ١٤٦/١٦.

(٤) انظر: الكتاب، ١٩٤/٢ و ٢٠٣.

(٥) نزهة الألباء، ص٢٤. طبقات النحويين واللُّغويين، ص٣٥.

(٦) الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، ، ص٢٦١.

(٧) الحلقة المفقودة، ص٢٥٤.

وهناك آراء نسبها سيبويه إلى أبي عمرو بطريق مباشر، قد يكون أخذها بطريق مباشر. ومن المرجح أن تكون هذه المسائل أخذها سيبويه بنفسه عن طريق كتبه(١).

وفي أبي عمرو ومن سبقه من النحاة يقول يحيى بن المبارك اليزيدي، وهو تلميذ أبي عمرو:

يا طالب النحو ألا فابكه بعد أبي عمرو وحماد
عيسى وأشباه لعيسى وهل يأتي لهم دهر بأنداد
هيهات إلا قائلا عنهم أرسوا له الأصل بأوتاد(٢)

يقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه (المدارس النحوية): وبذلك غدا يونس في نحوه وما وضعه من أقيسة أمة وحده، وتنبه إلى ذلك القدماء فقالوا: كانت ليونس مذاهب وأقيسة تفرد بها(٣).

* يونس بن حبيب (المتوفى سنة ١٨٢هـ)، وقد أخذ عنه سيبويه خاصَّة أصول النحو، كما أخذ عنه الكسائي والفراء، وغيرهم، وكان إماماً في نقد الشعر وفي النحو واللغة. وله نشاط متميز في تدريس النحو، حيث اشتهرت حلقته التي وفد إليها طلبة العلم وفصحاء الأعراب، فيأخذ ويعطي، ويقول أبو زيد الأنصاري: ما رأيت أحداً أبذل للعلم من يونس(٤).

(١) المرجع السابق، ص٢٥٧.
(٢) الجنى الداني، ص١٨٣.
(٣) المدارس النحوية، ص ٢٨.
(٤) طبقات النحويين للزبيدي، ص٥٢.

* الأخفش الأكبر (المتوفى سنة ١٧٧هـ): أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد البصري، الملقب بالأخفش الأكبر، من أكبر علماء العربية في عصره، سمع من العرب في ديارهم، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء، وهو أحد شيوخ سيبويه[١].

روى عنه سيبويه في كتابه نحواً من أربعين مسألة مهمة[٢].

وهؤلاء العلماء مَهّدُوا لظهور الطور الجديد من النحو، بل يمكن اعتبار جهودهم في خدمة علم النحو هي الأساس الأول الذي بنت عليه الطبقات التالية هذا العلم، ومما يميز تلك الفترة أن علوم العربية كانت مزيجاً من النحو واللغة والأدب، حيث لم تتميز بعضها من بعض.

وفي هذا يقول محمد الطنطاوي:" ... كانت كتبهم مزيجاً من النحو والصرف واللغة والأدب، وما إلى ذلك من علوم اللُّغة العربية، لأن هذه الفروع كانت متداخلة آخذاً بعضها بحجز بعض، لعرب الوشيجة بينها في الغرض والمقصد، فكان الأديب حينذاك نحوياً صرفياً لغوياً، والنحوي أديباً لغوياً صرفياً، وهكذا...، ثم أخذت هذه الفروع تمتاز بعضها من بعض في البحث والتدوين تدريجياً، حتى اشتهر بعض العلماء بالنحو، وأشير إلى آخر باللغة"[٣].

١٠. مرحلة الخليل وسيبويه

تُعتبر هذه المرحلة من أهم مراحل علم النحو، فرغم أن علم النحو مر بمراحل مختلفة كما رأينا، وتطوّر على أيادي أعلام بارزين، إلا أنه اكتمل وتأصّلت قواعده على أيادي أئمة أفذاذ لهذا العلم، لا سيما إمامي هذا العلم، وهما الخليل بن أحمد وسيبويه.

(١) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة للطنطاوي، ص٧٠. سيبويه إمام النحاة للنجدي، ص٩٠.

(٢) الدكتور محمد المختار ولد أباه : تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب ص٧٢.

(٣) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص٣٩.

أولاً: الخليل

هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، وُلد في عُمان ونشأ في البصرة، وتتلمذ على يد أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر، وغيرهما، وتنقل في بوادي الجزيرة العربية، والحجاز ونجد وتهامة، ثم عاد إلى البصرة، يستزيد من العلم ويحرص على طلبه، حتى ذاع صيته، ونبغ نبوغاً عظيماً لم يسبق إليه، حتى تتلمذ على يديه سيبويه النحوي، والنضر بن شميل، وهارون بن موسى النحوي، ووهب بن جرير، والأصمعي، وغيرهم(١).

قال عنه الزبيدي: وهو الذي بسط النحو مد أطنابه وسبب عللله وفتق معانيه وأوضح الحجاج فيه، حتى بلغ أقصى حدوده وانتهى إلى أبعد غاياته، ثم لم يرض أن يؤلف فيه حرفاً أو يرسم منه رسماً ترفعاً بنفسه وترفعاً بقدره؛ إذ كان قد تقدّم إلى القول عليه والتأليف فيه، فكره أن يكون لم تقدمه تالياً، وعلى نظر من سبقه محتذياً، واكتفى في ذلك بما أوحى إلى سيبويه من علمه، ولقنه من دقائق نظره ونتائج فكره ولطائف حكمته، فحمل سيبويه ذلك عنه وتقلده وألف فيه الكتاب الذي أعجز من تقدم قبله، كما امتنع على من تأخر بعده(٢).

وقال ابن الأنباري في نزهة الألباء: "وهو الذي بلغ الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله".

وممّا يؤكد تأثر سيبويه بالخليل، هو أن عامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل، وكل ما قال سيبويه: (سألته)، أو قال: (قال)، من غير أن يذكر القائل، فهو الخليل بن أحمد(٣).

---

(١) انظر: طبقات النحويين واللُّغويين، ص٤٧. إنباه الرواة ٣٧/١.

(٢) النحو العربي نشأته وتطوره، ص١٧٣ نقلاً عن مقدمة كتاب استدراك الغلط الواقع في كتاب العين للزبيدي.

(٣) انظر: نزهة الألباء، ص٤٦.

وينسب كثير من المؤرخين إلى الخليل نضوج النحو واكتماله، فتاريخ الدرس النحوي عند الخليل هو تاريخ النحو العربي الذي نعرفه جملةً وتفصيلاً[١]؛ لأن أقوال الخليل وآراءه وتعليلاته وقياساته مما احتواه (الكتاب) الذي دون سيبويه فيه بأمانة وصدق، تنظم النحو الذي نعرفه مسائل وأصولاً، ولأن الخليل إذا قيست أعماله بأعمال من سبقه كان هو المبدع الحقيقي لهذا العلم[٢].

ثانيا: سيبويه

هو عمرو بن عثمان بن قنبر، ولد بقرية البيضاء من قرى شيراز، وانتقل إلى البصرة وهو غلام، والتحق بحلقات الفقهاء والمحدثين، ولزم حلقات النحويين واللُّغويين وفي مقدمتهم عيسى بن عمر والأخفش الكبير ويونس بن حبيب، واختص بالخليل بن أحمد وأخذ عنه كل ما عنده في الدراسات النحوية والصرفية مستملياً ومدوناً، واتبع في ذلك طريقتين: طريقة الاستملاء العادية، وطريقة السؤال والاستفسار، مع كتابة كل إجابة وكل رأي يدلي به وكل شاهد يرويه عن العرب، وبذلك احتفظ بكل نظرياته النحوية والصرفية[٣].

وإذا ذُكر سيبويه، ذُكر الكتاب، وإذا قيل الكتاب، فهو كتاب سيبويه، والذي يُعتبر موسوعة في النحو والصرف واللغة، مليئاً بالأمثلة، زاخراً بالنظريات النحوية والاستعمالات اللُّغوية، وكانت بداية الانطلاقة الحرة لمن جاء بعده، فمنهم من يستخلص القواعد الأساسية، ومنهم يستشف اسرار اللغة وبيانها.

---

(١) الدكتور مهدي المخزومي : الفراهيدي عبقري من البصرة، ص٧٥.

(٢) انظر: المرجع السابق ص٧٦. وشوقي ضيف : المدارس النحوية، ص٥/١ و ٥٦

(٣) المدارس النحوية ٥٧/١، وانظر ترجمة سيبويه في: وفيات الأعيان ٤٦٣/٣، مراتب النحويين ١٠٦، مقدمة الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون. وفيات الأعيان ٤٦٥/٣، نزهة الألباء ٧١، بغية الوعاة ٢٢٩/٢.

ونال من ثناء العلماء الشيء الكثير، يقول المازني: من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد سيبويه فليستح[١].

ويقول السيرافي: إنه لم يسبق إلى مثله أحدٌ قبله، ولم يلحق به من بعده[٢].

وتعود أهمية كتاب سيبويه إلى العوامل التالية:

- يعتبر كتاب سيبويه أوّل المؤلفات النحوية التي بقيت.
- شموليته للمعارف النحوية.
- اتفاق معاصري سيبويه على أمانته في النقل.
- أسلوبه المتميز، رغم أنه احتاج إلى شروح كثيرة[٣].

وتعتبر مرحلة سيبويه من أهم المراحل التي مر بها تاريخ النحو العربي وأكبر تطور حصل له منذ نشأته.

كما أن كتاب سيبويه ساهم في بناء صرح النحو العربي وتحديد المواضيع التي لم تتناول قبله أو لم تحظ عند المتقدمين على سيبويه بالعناية الكافية، وتمكن من التمييز بين شخصية المقعِّد الذي وجد أحكاماً جاهزة فألف بينها وبوبها تبويباً تغلب عليه الصبغة النظرية، وشخصية الواصف الذي استنطق بعض جوانب المادة اللُّغوية وحللها واستنبط منها أحكاماً تقتضي تبويبها على حدة أو ضمها إلى الأبواب الحاصلة بعد[٤].

وقد حمله عنه تلميذه الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة، وأذاعه في الناس باسم (الكتاب) عَلَماً اختص به هذا المصنَّف وحده دون بقية المصنفات في عصره، بحيث كان يقال في البصرة: "قرأ فلان الكتاب" فيُعلم أنه كتاب سيبويه

(١) ابن الأنباري، النزهة، ص٥٦.

(٢) السيرافي، ص٦٥.

(٣) انظر: تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، ص٨١.

(٤) أعلام وآثار من التراث اللُّغوي، ص٥١.

دون شك. وظل هذا الاسم خاصاً به، دلالة على روعة تأليفه وإحكامه. ونرى كثيرين من النحاة وغيرهم ينوهون به تنويهاً عظيماً، من ذلك قول أبي عثمان المازني تلميذ الأخفش: "من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحْي مما أقدم عليه"(١).

ويقول الجاحظ: "أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك "الزيات وزير المعتصم" ففكرت في شيء أهديه إليه، فلم أجد شيئاً أشرف من كتاب سيبويه، وقلت له: أردت أن أهدي إليك شيئاً، ففكرت، فإذا كل شيء عندك، فلم أر أشرف من هذا الكتاب، وقد اشتريته من ميراث الفراء، فقال ابن عبد الملك: والله ما أهديت إلي شيئاً أحب إلي منه"(٢).

ويقول أبو الطيب اللُّغوي في سيبويه وفي كتابه: "هو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل، وألف كتابه الذي سماه الناس قرآن النحو"(٣).

ويقول السيرافي: "وعمل كتابه الذي لم يسبقه إلى مثله أحد قبله، ولم يلحق به من بعده"(٤).

ويقول صاعد بن أحمد الأندلسي (المتوفى سنة ٤٢٦ هـ): "لا أعرف كتاباً أُلِّف في علم من العلوم قديمها وحديثها، واشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب؛ أحدها المجسطي لبطليموس في علم هيئة الأفلاك، والثاني كتاب أرسطاليس في علم المنطق، والثالث كتاب سيبويه البصري النحوي، فإن كل واحد من هذه لم يشذّ عنه من أصول فنه شيء إلا ما

(١) الفهرست، ٨٦. وخزانة الأدب ١/٣٧١.

(٢) تاريخ بغداد ج١٢/١٩٦.

(٣) مراتب النحويين ص ٤٨.

(٤) المرجع السابق ، وأخبار النحويين البصريين، ٦٤.

لا خطر له"[1].

ولا غرابة في ذلك ولا مبالغة في ما قيل عن كتاب سيبويه، فإنه ـ أي سيبويه ـ بما حباه الله تعالى من ملكات عقلية باهرة رسم أصول العربية وصاغ لها قوانينها الإعرابية والصرفية، ولم يتعب النحاة بعده كثيراً، فقد يسر لهم سبيل علم النحو، بما أصل من أصول، وبما أقام من حجج وقدم من شواهد والتمس من علل. وفيه يقول ابن جني: " لما كان النحويون بالعرب لاحقين وعلى سَمْتهم آخذين وبألفاظهم متحلِّين ولمعانيهم وقُصُودهم آمِّين, جاز لصاحب هذا العلم "سيبويه" الذي جمع شَعَاعه ، وشَرَع أوضاعه، ورسم أشكاله، ورسم أَغْفاله, وخلج أشطانه ، وبعج أحضانه، وزم شوارده، وأفاء فَوارده أن يرى فيه نحوا مما رأوا ويحذوه على أمثلتهم التي حذوا، ولا سيما والقياس إليه مصغ، وله قابل، وعنه غير متثاقل"[2].

(١) معجم الأدباء ٨٢/٦. طبقات الأمم.

(٢) الخصائص ٣٠٨/١.